



نسب عثمان بن أرطغرل: بين الغموض التاريخي والصناعة الأيديولوجية

” ماذا يخفي
القرن الأول من
تاريخ العثمانيين؟“

“

يُعدّ نسب عثمان بن أرطغرل - أو أوتمن كما تشير بعض المصادر التركية - واحدًا من أكثر الموضوعات إشكاليةً في تاريخ الدولة العثمانية، إذ يكتنفه قدرٌ كبير من الغموض الذي يصعب تفسيره ضمن المعايير التاريخية الصارمة. فالروايات التي تناولت نسبه، سواء تلك التي تربطه بقبيلة "قابي" التركمانية كما في المصادر العثمانية المتأخرة،

بناءً سردي لاحق أكثر من اعتمادها على معطيات معاصرة.

وتزداد هذه الإشكالية تعقيدًا حين نضعها في سياق الفجوة الزمنية الحرجة في تاريخ العثمانيين الأوائل، وهي الفترة الممتدة خلال الفترة (1299-1399م)، أي القرن الأول من نشأة سلطنة العثمانيين. هذه المرحلة، التي يفترض أنها شهدت التحولات الكبرى في تشكّل الجماعة العثمانية من حيث الهجرة، والهوية الدينية، والبنية القبلية، وتأسيس السلطة، تكاد تكون غائبةً عن التدوين المعاصر، وهو ما فتح الباب واسعًا أمام تشكّل روايات لاحقة، كثيرٌ منها أقرب إلى البناء الأيديولوجي منه إلى التوثيق التاريخي.

إن هذا الفراغ التاريخي لم يُملأً بوثائق أو شواهد معاصرة، بل جرى تعويضه عبر روايات شفوية متأخرة، ثم أعيدت صياغتها في نصوص مكتوبة بعد أن ترسّخت الدولة العثمانية وبلغت درجةً من القوة والثراء تمكّنتها من إنتاج روايتها الخاصة عن ذاتها. وهنا تحديدًا تبدأ ملامح السردية المصنوعة، حيث لم يكن الهدف مجرد نقل الماضي، بل إعادة تشكيله بما يخدم بناء هوية سياسية ودينية. وفي هذا السياق، يمكن فهم الجهد العثماني اللاحق في تحسين صورة عثمان بن أرطغرل، وربطه بالقبائل التركمانية الكبرى، لا بوصفه مجرد خطأ تاريخي، بل باعتباره فعلًا واعيًا يخدم أغراضًا متعددة؛ منها تعزيز الانتماء العرقي، وتوفير شرعية سياسية، وإضفاء بُعد رمزي على البدايات الأولى للدولة. وقد تعزز هذا الاتجاه في العصر الحديث مع صعود مشروعات سياسية وثقافية تسعى إلى توحيد الشعوب التركمانية ضمن أطر قومية، وهو ما أعاد استدعاء هذه السرديات وتوظيفها مجددًا. ومن اللافت في هذا الشأن، مسألة الاسم نفسه: عثمان. إذ يثير هذا الاسم تساؤلات حول أصلاته، وهل هو الاسم الحقيقي للشخصية أم نتيجة تعريب لاحق؟ يشير جمال قفادار إلى أن الاسم الأصلي قد يكون أتومان أو أوطمان، وأن اعتماد الاسم العربي عثمان قد يعكس تحوّلًا مهمًا في الهوية السياسية أو الأيديولوجية للعثمانيين الأوائل، وربما كان جزءًا من محاولة واعية لربط نشأتهم بسياق إسلامي يمنحهم شرعية رمزية أقوى.

وتدعم بعض المصادر البيزنطية هذا الطرح، إذ تشير إلى أن أسماء قادة الأتراك الذين قدموا إلى الأناضول كانت تختلف في تهجئتها وصيغها عما استقر لاحقًا، وأنها خضعت لعمليات تحويل وتقريب إلى الأسماء العربية عند تدوين التاريخ العثماني. ومن هنا، فإن تحول أتومان إلى عثمان لا يبدو مجرد تطور لغوي طبيعي، بل قد يكون جزءًا من إعادة تشكيل الهوية في سياق لاحق.

وإذا انتقلنا إلى مسألة النسب القبلي، فإن الإشكالية لا تقل تعقيدًا. فالرواية العثمانية التي تربط أرطغرل وقبيلته بقبيلة قابي التركمانية لا تجد ما يسندها في المصادر البيزنطية المعاصرة، التي لم تُشر أصلًا إلى هذا الانتساب. بل إن المؤرخين أنفسهم اختلفوا اختلافًا كبيرًا في تحديد أصول العثمانيين، فبعضهم نسبهم إلى التركمان، وآخرون رأوا أنهم مجرد تجمعات قبلية غير متجانسة، بينما ذهب آراء أخرى إلى أصول خراسانية أو حتى شركسية.

ويشير محمد حمدان إلى هذا التباين الصارخ، مبيّنًا أن المؤرخين لم يتفقوا على أصل واحد، بل قدموا روايات متناقضة، وهو ما يعكس ضعف الأساس الذي تقوم عليه هذه السرديات. أما في المصادر الأوروبية، كما ينقل قفادار، فقد انشغل المؤرخون بسؤال الأصل العرقي للعثمانيين، فطُرحت فرضيات متعددة، مثل كونهم طرواديين أو سكوثيين، مما يعكس حالة الارتباك العام في فهم هذه النشأة.

هذا التباين الواسع بين المصادر العثمانية والبيزنطية والأوروبية، وغياب الإشارات الواضحة في المصادر المعاصرة لقدم العثمانيين، يكشف أن المسألة ليست مجرد اختلاف في التفاصيل، بل هي غياب شبه كامل للأساس التاريخي الذي يمكن أن يُبنى عليه تصوّر دقيق لنشأة هذه الجماعة. ويزداد الأمر وضوحًا حين نعلم أن أول تدوين معروف لتاريخ عثمان بن أرطغرل لم يظهر إلا بعد نحو قرن من تأسيس الدولة. وهذا يعني أن كتابة التاريخ العثماني جاءت في مرحلة لاحقة، بعد أن أصبحت الدولة في موقع يسمح لها بإعادة صياغة ماضيها وفق رؤية تخدم حاضرها. بل إن هذه النصوص نفسها - مثل "دستان وتواريخ ملوك آل عثمان"، وكتابات أحمدى، و"بهجة التواريخ"، وتاريخ عاشق باشا زاده - لم تصلنا في صيغها الأصلية، وإنما أعيدت كتابتها وتنقيحها مرات متعددة، مما يفتح الباب أمام احتمال تدخلات لاحقة هدفت إلى تهذيب الرواية وتجميلها.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن السردية العثمانية المتعلقة بنسب عثمان بن أرطغرل لا تصمد أمام النقد التاريخي الصارم، إذ تقوم على فراغات زمنية، وتناقضات مصدرية، وإعادة بناء لاحقة تخضع لاعتبارات أيديولوجية. ومن هنا، فإن ما قدّمته هذه السردية ليس تاريخًا بقدر ما هو محاولة لصناعة تاريخ، يُراد له أن يكون أساسًا لهوية سياسية ودينية، أكثر من كونه انعكاسًا دقيقًا لوقائع الماضي.

1. جمال قفادار، بين عالمين: بناء الدولة العثمانية (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022).
2. عزتلو آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، ترجمة: محمد زينهم (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1995).
3. محمد حمدان، التكايا والزوايا في تركيا (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2018).
4. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية (بيروت: دار العلم، 1983).